

كل شخص رديء في نظر شخص آخر

بيير زاوي مفكر فرنسي يصدر كتابا عن الخوف من الرداءة

في الأوساط الأدبية أو الفنية وحتى الرياضية والسياسية وغيرها، غالبا ما نسمع آراء حادة في بعض الفاعلين حول زملائهم، كثير من الكتاب مثلا تكفي عندهم كلمة واحدة إذا ما سئلوا عن غيرهم، "رديء"، كلمة تشبه السحر تكفي لإسقاط حيوات وتجارب بأكملها وتجاوزها، لكن ما هي الرداءة؟ وهل أن من ينعت بالرداءة رديء فعلا؟

أبو بكر العبادي
كاتب تونسي

ما من شك أن الرداءة في المطلق مكروهة، ولكن هل يكفي أن ندينها كي نضمن مكانا في الصف المقابل، صف الجودة والامتياز؟ فالملحوظ أن أغلب من يصمون غيرهم بالرداءة ليسوا بمنأى عنها.

كذا الشاعر الذي يسخر من ضحالة قصائد نظرائه ثم يجبر أشعارا دونها، والروائي الذي يحط من قيمة إبداعات زملائه ثم يقترف بدعا أشنع منها، والناقد الذي يخوض حربا مسعورة ضد كل من يسبيء إلى النقد بنصوص لا تخلو هي نفسها مما اعترض عليه، والصحافي الذي ينعي تدهور اللغة العربية بأسلوب ريك ولغة مرتبكة وأخطاء لا تحصى عددا.

كراهية الرداءة

يحدث أن يلغى أحدهم كل زملائه بجرة قلم، كحال كاتب تونسي سئل مرة عن القصة في تونس فنحن نغيا قاطعا أن يكون فيها قصاصون أصلا. وقس على ذلك في مجالات الحياة الخاصة والعامة.

والسبب أن الرديء لا يعي وضعه، ولا يدرك مدى رداءته، ولا يعلم حدوده، ولذلك تراه يبالغ في إعلاء شأنه والاستهانة بغيره، على غرار ترامب الذي يعتبر نفسه أفضل رئيس أميركي على مر التاريخ، رغم أن العالم بأسره يشهد على غيائه وردائه وتهوره. وتلك علامة من علامات الغرور لدى الرديء، لأنه حين لا يجد في داخله ما يرضيه، يعمد إلى المزايدة تجاه الآخرين، فيصممهم بما ليس فيهم، كطريقة لإبعاد الشبهة، شبيهة رداءته التي تتبدى في سلوكه أو خطابه أو كتاباته، وأحيانا فيها كلها مجتمعة.

تلك المسلمات يؤكدونها المفكر الفرنسي بيير زاوي في كتابه "الأسرار أو فن التوازي"، ولكنه يعالج مسألة الرداءة من زاوية جديدة، فهو لا ينظر إلى الرداءة كعلة، بل كظاهرة عامة متفشية في كل فئات المجتمع، ويبين أن الاختلاف فيها بالدرجة لا بالذوق، إذ عادة ما تتبدى في شكل سلم تراتبي يكون فيه المرء دائما رديئا في نظر طرف آخر.

وكراهية الرداءة تستمد جذورها من التقاليد الأرستقراطية التي تضع الأختيار في مواجهة بقية فئات المجتمع، نجد ذلك لدى الإغريق القدماء الذين يحددون الأرستقراطية كمبدأ صُفوي يُنتخب بفضلها الأختيار للحكم، مظلما نجدها عند نيتشه الذي لا يصلح إلا لخدمة الكبار، وكان بين أن فكرة "الصالح العا" متناقضة في مدلولها، لأن الصالح لا يمكن أن يكون عاما أو مشتركا، فإن كان نعمة فهي استثنائية أوجدها شخص هو نفسه استثنائي. وتستمد أيضا من الفلسفة التي تضع وجهها لوجه الحكيم والتافه، أي الرديء، وتحتفي بالفضيلة وتحقر الرداءة.

ولكن كان أرسطو ينزل الفضيلة بين رذيلتين كمثل الشجاعة التي تقع في اعتقاده بين الإقدام والجبن، فإن مفكرين آخرين يعتقدون ألا وجود لوسط بين رذيلتين، فالشجاعة أقرب إلى الإقدام من الجبن، ما يعني أن الرداءة، لا الرذيلة، هي المقابل الحقيقي للفضيلة. فلا ضير عندهم أن يكون المرء سيئا، ولكن أن يكون رديئا أو ينتج أعمالا رديئة ذلك في نظرهم يدخل

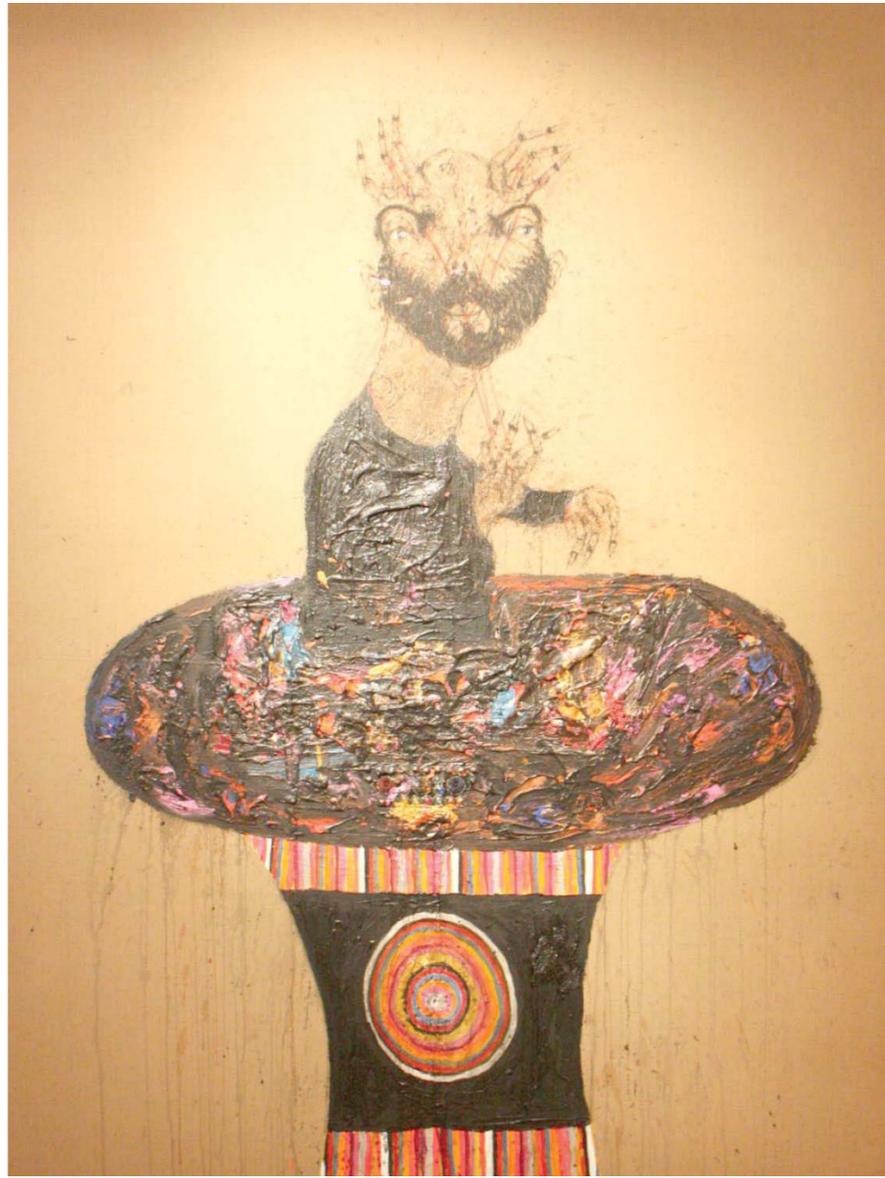
الروائي علاء مشذوب
حي في ذكرى اغتيالهوارد بحر السالم
كاتب عراقي

في سجل الموت العراقي الكبير صارت نسفة الغياب هي العادة في مجتمع ثقافي محاصر من الجهات كلها. خاصة عندما تكون الثقافة وجهها من وجوه التحرر والعلمانية الإيجابية الداعية إلى وطن يسوده الجمال والفن والأحلام الإنسانية المشروعة. ولذلك فإن مثل هذا السجل في مدونته اليومية لا يزال مفتوحا على الجريمة الثقافية التي غيّبت الكثيرين من الشعراء والروائيين والإعلاميين ولا تزال جارية حتى اللحظة.

ومن هذه المدونة القاسية بتجدد اسم الشهيد الروائي علاء مشذوب لمناسبة سنويته الأولى التي غاب فيها -قسرا- عن هذه النسفة الاجتماعية والأدبية. فقبل سنة اغتيال الروائي أمام داره في واحدة من أشنع الجرائم اليومية التي مارستها الميليشيات الطائفية بحق مواطنيها ومبدعيها. يومها كان حدثا جلا على المستوى المحلي والعربي ومنظمات حقوق الإنسان العالمية التي كشفت عن هذه الانتهاكات التي تطال المبدعين. كان يمكن أن يكون مقتل هذا السارد المبدع نقطة بث واسعة النطاق لحماية أصحاب الأقلام الحرة من مجرمي الطائفية الدخيلة على البلاد والعباد، والميليشيات المسلحة التي هيمنت على متن الساحة السياسية وسيرتها إلى أهدافها الطائفية الضيقة؛ غير أن تواطؤ الحكومة ومن معها من العناوين الخارجية المعروفة حالت من دون أن يكون لهذا الفعل المغادر أهمية تذكر. بل استمرروا في محاربة الجمال، بعد مشذوب؛ وقتلوا الكثيرين ممن يحملون سلاح الكلمة الوحيد من ناشطين وإعلاميين وأدباء وصحافيين وأكاديميين. لاسيما مع انتفاضة الشباب التي دخلت شهرها الرابع بشجاعة وصبر وحكمة متقدمة على الأعمار. حيث كشفت الأوراق مرة واحدة وتم فرز الأطراف المسلحة التي تغتال مثقفي العراق. ومن بينهم قتلة الروائي علاء مشذوب.

مشذوب لم يكن أول المسجلين أسماءهم في مدونة الموت المجانية التي تجري في الوطن. ولا آخر الراحلين عن مشهد الحياة العراقية في سردياتها الخيرة للأسى؛ لكنه كان أحد الذين يواجهون هذه المدونة بضمير يقظ وشهادات صادمة قالها في أكثر من مناسبة وأكثر من رواية وشهدت صفحتها الفيسبوكية الكثير من الآراء التي لا يتقبلها الآخر، فهو دائم النقد لإيران وتدخلها في العراق. حتى أنه ذات كتابة انتقد فيها آية الله الخميني ليعض نفسه هدفا مباشرا للمتطرفين القتل، ممن يتقنون لغة السلاح الكاتم والمسموم. لذلك دفع حياته ثمنا ليكون في النهاية شاهدا حقيقيا في مرآة البلاد الكبيرة. بعد أن كان شاهدا جانبيا للجريمة.

وعليه فإن مقتل علاء مشذوب بـ"إخراجه السينمائي جدا"، وقد جرى في زقاق ضيق ومن على دراجة نارية، كان علامة من علامات حسنة الآخر المنطوية تحت راية دينية متطرفة وافدة من خارج مدينة كربلاء، مشاركا في الجريمة؛ لتكتب صفحة دموية من صفحات الغدر التي تتسدر تحت غطاء ديني غير قادر على المحاوراة والحوار في جدلية الحياة العراقية المعقدة. وبالتالي فإن القتل الأميين الذين أطلقوا رصاصهم على جسد مشذوب لم يصيبوا روحه بالضبط. والدليل أن



ما هي الرداءة تحديدا (لوحة للفنان سبهان آدم)

سوف يسعون إلى الامتثال للمقاييس التي تحددها تلك المدارس، والحال أن الذكاء المتأقلم هو ذكاء الرديء، أما الإنسان الاستثنائي فلا يقلد غيره، وإنما يخلق نماذج سوف يسعى الرديئون إلى تقليدها من بعده.

كراهية الرداءة تستمد جذورها من التقاليد الأرستقراطية التي تضع الأختيار في مواجهة بقية فئات المجتمع

وفي رايه أن الرداءة بنية متسامية لوجودنا، فكلنا نواجه الإحساس بالرداءة، والخوف من أن يُفتضح أمرنا ونكتشف أننا رديئون، ولكن مع الحرص على تحمل رداءتنا والسعي إلى تجاوزها بالكرد، الجذ، فذلك هي السبيل للخروج من الرداءة، لأن المسألة في اعتقاده ليست مسألة اختيار، بل مسألة استعمال.

ويخلص بيير زاوي إلى القول إننا إذا تجاوزنا النظر إلى الإنسان من جهة وضعه، ونظرنا إليه من جهة قدرته على التحسن والتطور، فسوف نكتشف أن كل فرد قادر أن يتميز في شيء ما، فلا يغدو المتوسط حينئذ صنوا للرداءة بل المعادل الموضوعي لإمكانية الامتياز، ولو في المجال الذي يتقنه.

وفي رأينا أن الرداءة ظاهرة عامة، تصيب الناس كافة، منهم من يستعدي المعرفة ويستقوي بعناصر غير أخلاقية لفرض نمط مجتمعي يدل على النجاح والبروز، كما بين الكندي آلان دونو في كتاب "نظام الرداءة"؛ ومنهم من يجهل رداءته، فيعيب على الناس والعيب فيه؛ ومنهم من يعي وضعه، فيعمل على تجاوزه بالاجتهاد والمقاورة، والابتكار، وحتى باحتذاء من سار تلك السيرة قبله. ألم يقل هيغل إن وعي المرء بالمشكل تجاوز له؟

والامتثالي والخاضع الخانع، وقد يتحول إلى مقترف جرائم فظيعة كما بين بلوتاركا عن إرسترات مدرّس معبد أرتميس، ثم حنة أرندت عن النازي إيخمان.

والطريف أن الرداءة *mediocrite*، والتي ترجمتها بعضهم إلى تفاهة *futilite* وتعني في المعاجم الفرنسية كل ما هو في محل وسط، لم تكن دائما منبوذة في المجتمع الغربي، ذلك أن مفكري الأنوار، الذين ثاروا على سير العظماء ومفاهيم البطولة التي احتفت بها العصور القديمة، نظروا لمثل عليا أقل رفعة مما كانت عليه، فروسو امتدح الإنسان المتوسط (العادي)، وفولتير أشاد بالإنسان البسيط الذي يعرف كيف يعتنى بحديقته، وهيوم مجد الطبائع الهادئة والآراء المشتركة، وأكدوا كلهم تقريبا على أن الديمقراطية لا يمكن أن تبنى على الإنسان الاستثنائي، بل على الإنسان العادي، القادر على الإنجاز المشرف دون أن ينسى وضعه المشترك.

القدرة على التطور

أما اليوم، فإن كراهية الرداءة اتخذت لها وجهها آخر، وما عاد أحد يعرف موضعها، لأن زوال السلم التراتبي القديم ولد سيلا من الاحتقار، حتى بات كل واحد يخشى أن يكتشف الناس رداءته، لكون المرء كما أسلفنا رديئا دائما في نظر امرئ آخر، وحسبنا أن نقرا آراء العلماء والمفكرين والأدباء ورجال السياسة والاقتصاد وأهل الصنائع عن بعضهم بعضا، وفيها ما يبلغ أحيانا مبلغ المعارك في حديثها وسعارها.

ولا ينبغي المفكر الفرنسي أن يؤدي الامتياز بدوره إلى الرداءة، لأن النواجب الذين يتم إرسالهم إلى مدارس متخصصة، بدعوى حمايتهم من التعليم النظامي الرتيب،

في باب فساد الأخلاق أو انعدامها من أساسها. وتستندها أيضا من الرعية في التمرد على الوضع القائم وكسر الجمود، لكون الرديء مرادفا للعدائي



بيير زاوي:

كلنا نواجه الإحساس بالرداءة، والخوف من أن يفتضح أمرنا ويكتشف الآخرون أننا رديئون



رواياته بقيت حية وذكره غير ملتبسة علينا. وحضوره الأمين شاخص على مدار الوقت محليا وعربيا. ليكون أيقونة في مدونة الموت الكبيرة.

علاء مشذوب كان ضحية وضع سياسي ملتبس جدا. وضحية تطرف ديني سلبي هوائي متعصب بلا متن فكري جدي، ومنفذو الإعتيال هم ضحية بالنتيجة لذلك التطرف الأمي؛ لأنهم ببغاوات شعاراتية وممسوخون إلى الحد الذي صار القتل عندهم مهنة دينية ذرة. ومثل هؤلاء لم ولن يعرفوا مشذوب ولم يقرأوا له حرفا ولم يستوعبوا أن مقتله بتلك الطريقة الفجة كان إيدانا لصحوة جماعية لمعانية الخطر الوافد من خارج مدينة كربلاء، لتضييق مساحة الدم ومحاصرة الموت المجاني الذي تطلقه كواتم الصوت في سردياتها الحمراء التي لا تزال تثال من مثقفي ومتعلمي وصفوة أدباء البلاد. ومع هذا التحول الشامل إلا أن القتل لديهم السلطة والمال والسلاح والوقت والحيلة والغدر. مظلما يملكون القرار الأخير بعيدا عن الدولة ومنافذها الرسمية والأمنية. وبالتالي فإن الثقافة العراقية هي الحلقة الأضعف في هذا الميدان الناري المستمر منذ ست عشرة سنة وحتى اللحظة. والمثقفون عموما هم الأكثر ضررا من هذا التعامل الدموي الثقافية والأدبية والفنية والإعلامية.



الثقافة العراقية هي الحلقة الأضعف في هذا الميدان الناري المستمر منذ ست عشرة سنة وحتى اللحظة

مشذوب الذي لم يفارق كربلاء سرديا في كتاباته الروائية كان يوزع شذرات المدينة التاريخية على بقعة أوسع منها لتشمل الوطن في اتساعه الجغرافي والتاريخي والمدني الذي كان عليه، لذلك كان يستدعي شخصياته ذات العمق المعرفي والمدني وهي تناور الحاضر بخلفية الماضي السعيد الذي كاتته كربلاء قبل أن يستحوذ عليها ذبول الطائفية، ومثلما كأنه العراق كبلد يضم أطراف المجتمع الدينية والطائفية والأقليات المهمشة.

وما العنونة في رواياته إلا تأكيد على هذا الوصل الإنساني والثقافي في مسحه العام للبلاد وما اختزنته من آثار معرفية وثقافية ودينية. ومن ثم نستطيع أن نقرأ حجم الألم في استعادة الماضي الرصين بدءا من "فوضى الوطن" (2014) وهو عنوان شارح، ثم "انتهزيون ولكن" (2016) بتوصيف الحالة السياسية والاجتماعية، لتأتي بعدها "جمهورية الخان" (2018) وهي محلته التي قتل فيها حتى "شارع أسود" (2019) بنبرته المشائمة ولونه الحزين، وصولا إلى "مدن الهلاك" (2019) و"شيوخوخة بغداد" (2019) كنبوءات لا واعية أنهت مشواره مع الحياة والثقافة بوصفها الحي.

لذلك فإن مشذوب المبدع/ الضحية التعم اسمه قبل مدونة الموت الكبرى/ لكنه شاء ألا يتعد عنها كثيرا. فجاورها وجاورها ليكتب سرديات الوطن الجريح في روايات اكتمل بعضها ولم يكتمل البعض الآخر. في حين بقي الآخرون يكتبون بكثير من التشكك والابتباس... لكن لا تزال المدونة مفتوحة.. للأسف!



عام على الرحيل المر